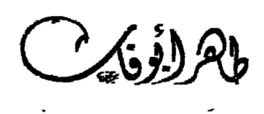

عازفة الناى
طاهر أبو فاشا
رابعة العدوية

اهداءات ١٩٩٩

ا/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية



عازفة الناى
رابعة العدوية

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش)



هذه التمثيلية

أردتُ أن أقول فى هذه التمثيلية : إن الطريق سالكة ، وإن الوصول ممكن إذا أراد الناس أن يصلوا .

ليست الخطورة أن نخطئ .. فكثيراً ما يهدي الخطأ إلى الصواب .. وكل بنى آدم خطاءون .

إن الخطر الحقيق يكمن فى انعقاد النفس على الخطيئة والهروب من مواجهتها . والفرار من الواقع النفسى إلى أفيون المبررات .

فلنعرف خطايانا فى مرحلة النقد الذاتى .. ثم نسلك الطريق فليس هناك ما يمنع من الوصول كما تقول حوادث هذه التمثيلية .

طاهر أبو فاشا

عازف قرنای



شخوص

عبد الله « والد رابعة »

أمة الله « والدة رابعة »

رابعة

الأمير

عمار « صاحب الخمارة »

أبو حرام }

هشام } « أصدقاء الخمارة »

حمزة }

مبروك « خادم »

مالك « خادم »

عبده « خادمة رابعة »

ابن زياد « مولى رابعة »

علقمة }

ورد } « أصدقاء ابن زياد »

همام }

اللص

ابن دينار « فقيه متصوف

سفيان « فقيه متصوف


ميلاد

كأنما ولد القرن الثانى ليملى هذه الحوادث:
مدينة البصرة ، وكوخ صغير فى طرف المدينة.
تأوى إليه أسرة فقيرة : الشيخ عبد الله ، وزوجه ، أمة الله ، وبناتهما الثلاث .

وجلس الشيخ ناحية يفكر .

إنه يستقبل مولوداً جديداً ، وكان يتمنى أن يكون غلاماً على بناته الثلاث.

ويصل إلى سمعه بكاء الوليد الجديد . . ويرفع الأب رأسه وهو يتنهد :

عبد الله : هيه يا صغيرتى . . أنت لا تعرفين الحياة ، ولكنك تستقبلينها بالبكاء . .

(ثم وهو يتنهد) هكذا الدنيا : بكاء ساعة نستقبلها ، وبكاء ساعة نخرج منها .

(صوت البكاء)

عبد الله : إبكى . . إبكى يا صغيرتى . .

عائشة : (فى سذاجة الطفولة) وأبكى أنا الأخرى يا أبى ؟

عبد الله : (فى ألم) لا . . لا يا عائشة .

عائشة : حسبتك تريد هذا يا أبى .

عبد الله : (يلاطفها) عائشة . .

أسماء
سكينة } : (تقبلان فى فرح) أبى . . . أبى .

عائشة : أسماء . . سكينة .

عبد الله : انتظرى عائشة .

أسماء : (متضاحكة) أرأيت إلى أختنا الصغيرة يا أبى ؟ .

عبد الله : يا رب : أنت قدرت فدبر .

سكينة : كم هى جميلة يا أبى .

أسماء : (متضاحكة) جميلة . ولكنها تصرخ دائماً .

عبد الله . . (فى ضحكة خفيفة) لعلها تنادينى .

سكينة : (ضاحكة) أجل يا أبى .

عبد الله : يا للصغيرة المسكينة .

أسماء : ألا تكلم أمى يا أبى ؟ .

عبد الله : أفعل يا ابنتى . . خذا أختكما هذه عنى فلاعباها .

عائشة : (فى فرح) ونلعب تحت النخيل يا أسماء ؟ .

أسماء : تعالىْ عائشة .

عبد الله : (وهو ينهض متثاقلا) أنت تعلم ، وغيرك لا يعلم
(ثم بصوت مرتفع) لا تذهبا بعيداً .

سكينة : (من بعيد) نحن وراء النخيلات يا أبى .

(باب الكوخ)

عبد الله : (داخلا) كيف حالك الآن يا أم البنات ؟.

أمة الله : (تبكى) .

عبد الله : لا . لا تحزنى أمة الله .

أمة الله : (وهى تبكى) كنت أرجو أن تكون هذه المرة ولداً
تقر به عينك يا عبد الله .

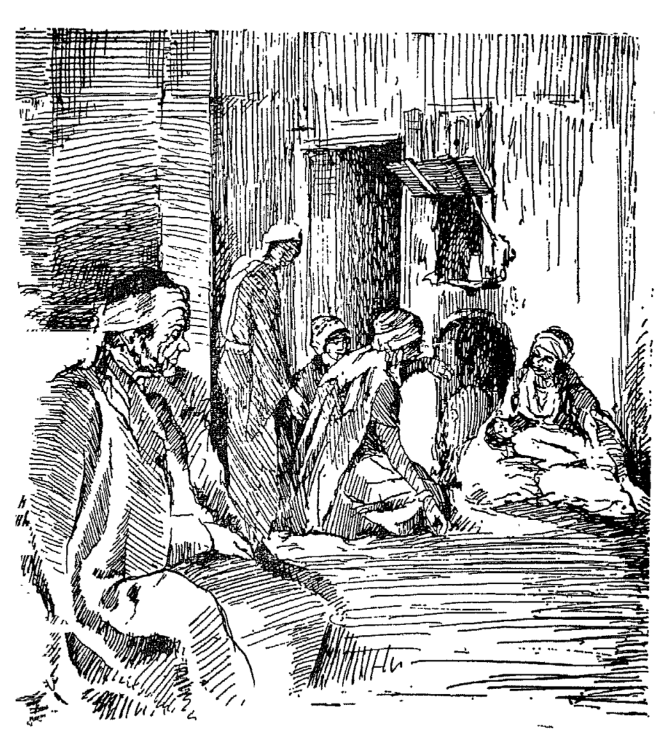
عبد الله : (وهو يغالب شعوره) ولكن الله أرادها بنتاً يا أمة الله .

أمة الله : (فى حسرة) إنهن ثلاث بنات . . وهذه . . رابعة .

عبد الله : أهو اعتراض على قضاء الله ؟ !

أمة الله : (مستنكرة) معاذ الله . . ولكن ألا ترى إلى
ما نحن فيه من فقر وسوء حال .

عبد الله : إه . يدبرها خالق الليل والنهار .



ولكن الله أرادها بنتاً يا أمةَ الله ..

أمة الله : (وصوتها يتهدج من الإعياء) ليس فى الدار قطرة دهن ندهن بها موضع خلاصها ؛ وليس لدينا مصباح نستضئ به ، ولا خرق نلفها بها .. ولا .

عبد الله : (يقاطعها) كفى . . كفى أمة الله . . أنت متعبة .

أمة الله : (متحسرة) بنت ومسغبة . . إلى الله المشتكى .

عبد الله : (يلاطفها) رويدك أمّ البنـــات . . إنك والله لا تعرفين أين يكون الخير .

أمة الله : (من خلال دموعها) عبد الله .

عبد الله : (يواصل حديثه) لقد والله رأيت فيما يرى النائم بالأمس كأنّ هاتفاً يصيح بى : « قم عبد الله ، واذهب إلى عيسى زاذان » .

أمة الله : أمير البصرة !!

عبد الله : نعم يا أم البنات ؛ وقال لى الهاتف : « إن الأمير سيعطيك عقيقة المولود » .

أمة الله : (بصوت حالم) عقيقة المولود ؟!

عبد الله : نعم : « وفى يوم مشهود » .

أمة الله : أضغاث أحلام يا عبد الله.

عبد الله : (يراجعها) ولكنى قمت من نومى فاستعذتُ من الشيطان ، وقرأت ما تيسر من القرآن .. ثم نمت فإذا الهاتف هو الهاتف ، والكلام هو الكلام .

أمة الله : (فى دهشة) عجباً .

عبد الله : (يزيدها دهشة) وقمت من نومى فَزِعاً .. فتوضأتُ ؛ وصليتُ ، واستعذتُ ؛ وقرأت .. ثم نمت فإذا الهاتف للمرة الثالثة . فلم يبق إلا أن تكون رؤيا حقٍ يا أم البنات .

أمة الله : (وقد ازداد عجبها) هذا أعجب يا عبد الله !!

عبد الله : وأى عجب يا أمة الله ؟

أمة الله : ولماذا لم تفعل ما تؤمر ؟

عبد الله : أفعلُ إن شاء الله .

أمة الله : وتذهب إلى الأمير يا عبد الله ؟

عبد الله : أذهب يا أمة الله .

أمة الله : (وكأنها فى حلم) ويعطيك عقيقة المولود ؟

عبد الله : (متضاحكا) فى اليوم المشهود .

(المولودة تبكى أثناء كلامهما)

عبد الله : (فى إشفاق) يا للصغيرة المسكينة (ثم فى تلطف) انظرى أمة الله . . كم هى جميلة .

أمة الله : ما ذنب هذه الصغيرة .

عبد الله : (يواسيها) لا تبكى أمة الله . . أمّلى خيرا . . أنا ذاهب إلى الأمير .

(صهيل خيول وهى تقترب لتقف من الباب)

(طرق على الباب وأصوات خفيفـــة)

أمة الله : (لزوجها) ما هذا عبد الله ؟

عبد الله : لا أدرى (ثم رافعاً صوته) من الطارق ؟

صوت : (من الخارج) افتح يا رجل . . إنه الأمير .

أمة الله : (تشهق من الدهشة) هيه يا إلهى .

عبد الله : الأمير . . ت . . تفضلوا .

أمة الله : كيف تدعوه عبد الله ؟ (الباب يفتح) .

عبد الله : لقد — والله —كنتُ على أن أسعى إلى الأمير

الأمير : (داخلا) بل نحن الذين نسعى إليك أيها العبد الصالح .

عبد الله : سيدى .

الأمير : سلامٌ عليك .

عبد الله : وعلى الأمير السلام .

البنات : (مقبلات فى خوف وذعر وهن يتصايحن) أبى .. أبى ماذا يريدون بك .

عبد الله : لا تخافا يا ابنتىّ .. إنه الأمير .

الفتاتان : (فى ذعر) الأمير !

الأمير : (فى تلطف) لا تراعا يا صغيرتىّ .. أنا فى ضيافة أبيكما .

أسماء : مرحباً بك يا أمير .

عبد الله : لا أدرى ماذا أقول . لقد كنت والله فى طريق إليك يا مولاى . فساقك الله إلىّ .

الأمير : (مستغرباً) هذا عجيب .. (ثم مستدركا) ولكن لماذا كنت تقصدنى ؟

عبد الله : بل لماذا جئت انت يا سيدى ؟



لقد كنت ـــ والله ـــ فى طريق إليك يا مولاى

الأمير : قل لى أنت أولا : لماذا كنت تريد أن تسعى إلىّ ؟

عبد الله : (وهو يتمثل الرؤيا التى رآها فى منامه) إنه يا سيدى .. إنه ..

الأمير : (يشجعه) إنه ماذا .

عبد الله : إنه حلم رأيته . . وهاتف سمعته .

الأمير : (وقد فوجئ) يا إلهى . . ماذا تقول يا عبد الله ؟

عبد الله : (وقد لاحظ انفعاله) هل .. هل أغضبتك يا سيدى ؟

الأمير : أغضبتنى !! قل . . قل يا عبد الله .

عبد الله : (متخوفاً) سيدى .

الأمير : كم مرة جاءك الهاتف ؟

عبد الله : ثلاث مرات يا سيدى .

الأمير : (فى غاية التأثر) لا إله إلا الله . . (ثم مقبلا عليه) وكلمك عن عقيقة المولود ؟

عبد الله : (فى دهشة) الله !! من قال لك يا سيدى ؟

الأمير : الهاتف الذى قال لك يا عبد الله .

عبد الله : يا ربى .

الأمير : (مواصلا) لقــــد رأيتُ ما رأيتَ . . وسمعتُ ما سمعتَ . . ولهذا أتيتُ . . (ثم وهو يقدم إليه الصرة) خذ . . خذ عبد الله .

عبد الله : (فى دهشة) ماذا ؟

الأمير : هذه هى عقيقة المولود . . وهذا هو اليوم المشهود .

عبد الله : الحمد لله والشكر لك يا أمير .

الأمير : بل الحمد والشكر لله .

عبد الله : (مشيراً إلى حالته) لقد صادف الغيثُ أوانه يا أمير

الأمير : لن تحمل همّ الحياة ما دمت حيا يا عبد الله .

عبد الله : أطال الله حياتك . . وأحسن جزاءك .

الأمير : (وهو يتهيأ للانصراف) سأراك يا عبـد الله . . أليس كذلك ؟

عبد الله : كلما شئت يا أمير .

الأمير : حسنٌ . . سلام عليك أيها العبد الصالح .

عبد الله : وعلى الأمير السلام .

الأمير : (يرفع صوته لتسمعه أمة الله داخل الخباء) سلام لك أيتها الأمّ الصالحة .

أمة الله : وعلى الأمير السلام .

الأمير : (خارجاً) سلام على بناتكما الثلاث .

عبد الله : (يلاحقه متضاحكا) والرابعة يا أمير .

الأمير : (ضاحكا وهو يبتعد) والرابعة .

البنات : (فى فرح) دنانير . . دنانير يا أماه .

أمة الله : عبد الله .

عبد الله : انظرى أمة الله . . إنها دنانير .

أمة الله : (فى فرح) عقيقة المولود .

عبد الله : (وهو يضحك) فى اليوم المشهود .

سكينة : إنه رزق أختنا الجديدة .

عبد الله : الرابعة .

البنات : (فى ترنم) دنانير . . دنانير . . دنانير .

فواجع

ومرت السنون ، وتعاقبت الأيام ، وشبت البنات الثلاث ، ويفعت « الرابعة » .

وكانت سنة جدباء . . قحط فيها الناس ؛ وكلب الزمان . . واجتاح البصرة الطاعون ، ورصـــد الحاكم أفواه الطرق على البصرة يمنع الدخول إليها والخروج منها وبات الناس من ذلك فى كرب عظيم .

أبو محمد : (معترضا) كلا هذا غير صحيح . والنص صريح : « لا عدوى ولا هامة ولا طِيَرَةَ ولا صَفر » .

عتبة : وما تقول فيما فعله عمر ؟

أبو محمد : وما تقول أنت فى هذا النص ؟

عتبة : أقول ما قاله الصدر الأول : لا عدوى مؤثرة بنفسها .

أصوات : (مختلطة بعضها موافق وبعضها معترض) .

أبو أسامة : (مقبلا عليهم . . وبصوت يطغى على ضجيجهم) يا قوم . . يا قوم .

أبو محمد : أبو أسامة !

عتبة : ما وراءك يا أبا أسامة ؟

أبو أسامة : اسمعوا هذا واتركوا هذا .

أصوات : ماذا ؟ . . ماذا ؟

أبو أسامة : لقد رصد الأمير جنوده على أفواه الطرق . يمنعون من فى البصرة من الخروج منها . . ويمنعون القادمين من الدخول إليها .

أبو محمد : (غاضبا) إذن . فقد حبسنا الأمير مع الطاعون فى هذا البلد .

عتبة : حتى لا ينتشر الطاعون .

أبو محمد : (فى يأس) أو يقضى الله أمراً كان مفعولا .

مرة : (يهمس لعتبة) عتبة .

عتبة : ماذا ؟

مرة : أنظر : أليس هذا عبد الله ؟

عتبة : (وقد اتجه بنظره نحو إشارته) بلى . وهؤلاء بناته يمشين وراءه على استحياء .

(ثم يتركه ويسرع إلى عبد الله وهو يقول) يا إلهى . إنه يتهالك على نفسه(ثم وهو يتجه إليه) عبد الله . . عبد الله .

عبد الله : (فى إعياء) آه .

عتبة : (وقد صار أمامه) ماذا أصابك عبد الله ؟

عبد الله : (متألماً) عتبة .

عتبة : ما بك يا عبد الله .

عبد الله : (فى ألم مكتوم) لا شىء .. هيه . الأمر لصاحب الأمر.

عتبة : وأولاء بناتك عبد الله ؟

عبد الله : (متألماً) أجل يا عتبة .

عتبة : ما شاء الله .. لقد كبرن يا عبد الله .

عبد الله : كبرن . وكبر الزمان يا عتبة .

عتبة : (يهون عليه) لا حيلة فى الرزق .

عبد الله : ولا شفاعة فى الموت .

عتبة (يحاول أن يخرجه من هذا الجو) ولكن . من أين ؟ وإلى أين يا عبد الله ؟

عبد الله : (فى تردد) لقد كنت .. أردت .. لـ .. أقصد .. (ثم يلتفت إلى بناته) أسماء .

أسماء : أبى .

عبد الله : خذى إخوتك وانطلقى بهن بعيداً أكلم عمكن فيما لا ينبغى لكن أن تسمعن .

أسماء : تعالى سكينة .

سكينة : تعالى عائشة .

عبد الله : (فى ألم مكتوم) هيه .

عتبة : تجلد عبد الله .

عبد الله : لقد جهدتنا الشدة يا عتبة . وكان الأمير عيسى ظلا فانحسر الظل .

عتبة : رحم الله الأمير . ولك طول البقاء .

عبد الله : البقاء . ! لقد تركت أم البنات يأكلها الجوع ويفترسها الطاعون وخرجت أبيع بناتى . . أبيع بناتى .

عتبة : (مستنكرا) تبيع بناتك ؟ !

عبد الله : فى لحظة من لحظات اليأس قد يفكر الإنسان فيما لا يقدم عليه إنسان .

عتبة : (أشد استنكاراً) تبيع بناتك يا رجل ؟

عبد الله : (وصوته يرتعش) قلت أمسك عليهن الحياة .

عتبة : أى حياة يا رجل . حياة الذل والعبودية ؟

عبد الله : (بصوت مختنق) وماذا أصنع يا عتبة . إذا أبقيتهن

هلكن جوعا . وإذا بعتهن هلكن ذلا ... ماذا أصنع يا عتبة ؟

عتبة : (فى تخوف) وأين الرابعة ؟

عبد الله : (بصوت يخنقه البكاء) الرابعة .

عتبة : (وقد ازداد شكه) أتراك بعتها ؟

عبد الله : بل تركتها فى خدمة أمها المريضة . وخرجت بهؤلاء وليتنى وجدت من يشترى .

عتبة : عهدى بك غير هذا يا عبد الله ... لا يا رجل ... ليس هذا طريقك (وهو يخلع قباءه) .

عبد الله : ماذا تصنع يا عتبة .

عتبة : (وهو يقدم له القباء) خذ .

عبد الله : ماذا ؟

عتبة : (وهو يقدمه له) خذه . وارجع ببناتك عبد الله .

عبد الله : ما هذا يا عتبة ؟

عتبة : هذا قبائى ... ولو كنت أملك غيره قدمته لك .

عبد الله : تقدمه لى !

عتبة : خذه . فإنه يساوى شيئاً ... ويسد حاجة .

عبد الله : لا يا أخى . أمسك عليك قباءك . أنت فقير مثلى .

عتبة : ولكنى لست فى مثـــل حاجتك ... هيا عبد الله (ثم ينادى) يا أسماء . يا أسماء .

عبد الله : م ... ماذا ؟

أسماء : (مقبلة) لبيك يا عماه .

عبد الله : عتبة .

عتبة : إرجع ببناتك عبد الله . واعلم أن الذى خلق عباده لا ينسام .

عبد الله : آمنت بالله .

أسماء : (وقد اقتربت منهما هى وأختاها) لبيك يا عماه .

عبد الله : (بصوت متهدج) ابنتى .

أسماء : أبى .

عبد الله : خذى بيدى يا ابنتى ... (ثم وهو يمشى وصوته يبتعد) يا ما أنت كريم ... يا كريم ، يا ما أنت رحيم ، يا رحيم يا ما أنت لطيف ... يا لطيف ... يا لطيف .

على فراشِ الموْت *

وعلى فراش الموت كانت ترقد أمة الله .. وقد
اشتدت عليها وطأة الطاعون وبجانب منامتها
ركعت رابعة وهى تجهش بالبكاء .

رابعة : (تبكى)

أمة الله : (على فراش الموت) لا .. لا تبكى .. يا .. ابنتى .. يكفى ما أنا فيه يا رابعة .

رابعة : (من خلال دموعها) بروحى أنت يا أماه .

أمة الله : (بصوت يرتعش) ابنتى .

رابعة : (بصوت مختنق) مرض .. ومجاعة ..

أمة الله : الـ .. حمد .. لله

رابعة : أماه .. ألا تخبرينى أين ذهب أبى بأخوتى؟

أمة الله : (تخفى عنها الحقيقة) ذهب .. إلى الـ .. أمير .. عيسى زاذان .

رابعة : (وتنفجر باكية) لا يا أماه .. أنت تخفين عنى الحقيقة لقد مات الأمير بالطاعون منذ ثلاث ليال .

أمة الله : (تبكى) ابنتى .

رابعة : أين إخوتى ؟ . أين إخوتى ؟ .

أمة الله : لا تفكرى . . فى هذا . . رابعة .

رابعة : (وهى تبكى) إخوتى . . إخوتى .

أمة الله : اسكتى . . اسكتى بالله يا ابنتى .

(يفتح الباب ويدخل عبد الله منهاراً)

رابعة : إنه أبى .

أمة الله : لعله . . جاءكم . . بما تتبلغون به .

عبد الله : (داخلا وهو محطم) آه . . يارب .

أمة الله : عبد الله .

عبد الله : (فى غاية الحزن) كيف حالك الآن يا أم البنات ؟

أمة الله : أقضيها من عمرى ساعات . . إنه الطاعون يا عبد الله ألم تجد طعاماً ؟

عبد الله : . . . . . .

أمة الله : وأين البنات ؟

عبد الله : إنهن ورائى . . (ثم فى حسرة) لم أجد من يشتريهن .

رابعة : (تشهق من الفزع) وكنت تريد بيعهن يا أبى ؟

عبد الله : (وكأنه يكلم نفسه) ليتني استطعت . . إذن لأبقيت عليهن الحياة . . ولكني كنت مخطئاً . . الناس فى البصرة يبحثون اليوم عن اللقمة ولا ينظرون إلى الجوارى .

البنات : (داخلات) أماه . . أماه

أمة الله : أولادى .

رابعة : (صارخة) أسماء . سكينة . عائشة .

أمة الله : (بصوت مبحوح) عبد الله .

عبد الله : (فى غاية الجزع) أمة الله . . أمة الله .

البنات : (فى غاية الجزع) أمى . . أمى . . أماه .

عبد الله : (على بكائهن) لا حول ولا قوة إلا بالله (ويقطع كلمته ويقع متهالكاً على نفسه) .

البنات : أبى .

عبد الله : إن قدمى . . لا تحملان جسمى . . آه

رابعة : وأنت الآخر يا أبى .

عبد الله : (وهو يبكى) اسنديني يا ابنتى (ثم بصوت مبحوح) أولادى . . أولادى . .

رابعة : (صارخة) أبى وأمى .

البنات : (بكاء) .

الشاردة

وخرجت البنات شاردات .. وتفرقت بهن السبل ،
وهامت رابعة على وجهها .. فى يدها ناى تتنفس فيه
أحزانها ..

رابعة : (يغلبها البكاء فترفع الناى وتتجه إلى السماء)

غريبة الدار .
يتيمة الأبوين ..
إذا أمسيت لا أدرى أين أصبح .. وإذا أصبحت
لا أدرى أين أمسى .
واقلباه .
إلى أين يا رباه .

(ثم تغنى وهى تبكى غناء حزيناً)

لغيركَ ما مددت يَدا   وغيرك لا يفيض ندى[1]
وليسَ يضيقُ بابُكَ بى   فكيف تردُّ مَن قَصدا
وَرُكنك لم يزل صمدا   فكيف تذود من وردا
ولطفك يا خفيَّ اللطـ   ـف إنْ عادِى الزمانِ عدا
على قلبى وضعتُ يدا   ونحوكَ قد مَددتُ يدا

(١) موسيقى وألحان كمال الطويل .

تَسرى ليلى بغير هُدى ولا أدرى لأىّ مدى
يطاردُنى الأسى أبدا وَيرعانى الجوَى أبدا
وينشرنى الهوى روحاً ويطوينى الهوى جسدا
وأطوى البيد طاويةً كأنى فى الفضاء صدى
نهارى والهجيرُ لظىً وَليلى والظلامُ ردى
فواكبدا إذا أُضحىِ وإن أُمسىِ فواكبدا
وليس سواك لى سَندٌ فقدت الأهل والسندا
فقدتُ الأهلَ والسندا

(وتنفجر باكية)

عمار : (صاحب الحانة الذى كان يمشى وراء أنغامها وهى لا تشعر به فى الصحراء)

مَرحى . . مَرحى .

رابعة : (تشهق من الرعب وقد فوجئت به) هيه .

عمار : (يضحك)

رابعة : (فى رعبها) من أنت بحق السماء ؟

عمار : (وقد استرعى نظره جمالها) بل من أنت يا . . يا جنية الصحراء ؟

رابعة : انشقت عنك الأرض أم هبطت من السماء ؟

عمار : بل أنا وراءك منذ ساعة .. وأنت مع هذه الأنغام .. سابحة لا تحسين وقع الأقدام .. وتسأليني من أنا ؟

رابعة : (فى خوف منه) وما شأنك بى يرحمك الله ؟

عمار : (يواصل حديثه) فتاة تمشى وحدها فى البيداء .. لا أنيس لها غير هذا الناى الباكى .. وهذا الغناء الحزين .

رابعة : (وهى تبكى) دعنى لشأنى .. دعنى .

عمار : (يترك كلامه ويقبل عليها) أو .. لا . لا تجزعى ياصغيرتى إن هاتين العينين لم تخلقا للبكاء .

رابعة : (تبكى)

عمار : وهذه الأنغام السماوية .

رابعة : (تبكى)

عمار : (وهو يداعب خدها بيده) يا تبارك الله .. ما أصبح وما أملح .

رابعة : دعنى .. لا تلمسنى .. دعنى

عمار : لا تخافى يا صغيرتى .

رابعة : اتركنى .. اتركنى .

عمار : أنت يا صغيرتى .



نحن أربع يتيمات مات أبوانا فى الطاعون . . الذى دهم البلاد

رابعة : غريبة الدار .. يتيمة الأبوين .. أرسف فى قيود الذل والهوان .

عمار : لا تراعى ياصغيرتى ... إن جمالك هذا يجنبك كل هوان (ثم مستدركاً) ولكن . ما هذا الناى ؟

رابعة : إنه سلوةُ المحزون .

عمار : وما هذا الغناء ؟

رابعة : إنه علالةُ المهموم .

عمار : ومن علمك هذه الأنغام يا جميلتى ؟

رابعة : علمنىَ إياها سهدُ الليل وهمُّ النهار .

عمار : (مأخوذا بجمالها ومنطقها) لا لا .. أنت يا .. ما اسمك يا صغيرتى ؟

رابعة : اسمى .. رابعة .

عمار : (ينفجر ضاحكا) رابعة .. إذن فأين الثالثة وأين الثانية وأين الأولى ؟

رابعة : إنك لا تهزل .. إنهن إخوتى .
نحن أربع يتيمات .. مات أبوانا فى الطاعون الذى دهم البلاد .

ولما اشتدت المجاعة بالبصرة . وقحط الناس . خرجنا نلتمس الحياة . وتفرقت بنا السبل ؛ فهمت على وجهى لا أعرف أين أمسى .. ولا أعرف أين أصبح .

عمار : حسنٌ . لقد وصلت يا صبيتى .

ولكنى أعجب !! كيف نجت الشاة من ذئاب الصحراء .

(ثم وقد اكتشف ملاحتها أكثر) يا لله . ! ما هذا ؟

رابعة : (خالية الذهن) ماذا ؟

عمار : (وهو يتأملها) طلعة كالصبح إذا أسفر . . وشعرٌ كالليل إذا أظلم . . وصوت كالا . . كيف أصف صوتك يا . . يا رابعة ؟

(ثم لنفسه فى جشع) لقد وقعت على صيد سمين . . أقبلى . . أقبلى .

رابعة : كلا . . كلا . دعنى .

عمار : لا تراعى يا صغيرتى .

رابعة : دعنى . . دعنى يا رجل .

عمار : أيها الغزال النافر .

رابعة : أستحلفك بالـ . .

عمار : (يقاطعها) لا تخافى يا صغيرتى . . أنا لا أريد بكِ سوءاً . . ولا أريد إلا الخير لك . أدبرى .

رابعة : دعنى بالله .

عمار : حسنٌ . حسن . . ستكونين قَيْنَةً تتحاكى بها حانات الأُبله . . إسمك — إذن — رابعة .

رابعة : أجل يا سيدى .

عمار : فما ولاؤك ؟ .

رابعة : ولائى لآل عتيك .

عمار : أى بطونهم .

رابعة : بنو عَدْوَة .

عمار : إذن . فأنتِ عَدَوِيه ؟

رابعة : أجل ياسيدى .

عمار : هـذا جميل . (ثم يجرب وقع اسمها على السمع) رابعةُ العدوية .. اسم جميلٌ ، ومسمى أجمل .. تعالى .. تعالىْ . .

رابعة : لا . . لا . . أتركنى لشأنى .

عمار : لا تكونى حمقاء . . إنما أنتشلك مما أنت فيه . . تعالى معى .

رابعة : إلى أين ؟

عمار : (فى غاية الجشع) إلى حيث الذهب .

رابعة : الذهب !

عمار : والحرير والديباج . هيا يا رابعة .

رابعة : يا ربى .

عمار : (وهو ينطلق بها) بهذا الصوت الساحر .. وبهذا الجمال النادر .. سأصنع منك شيئا يملأ ليالى الأبلّة .. هيا يارابعة

(ويقهقه وصوته يبتعد) .


أوحال

وعرف عمار كيف يجعل من هذه الشاردة اليتيمة قينة تتحاكى بها ليالى الأبلة .

وتسامع الناس بهذه الشادية . . فتواكبوا على حانة عمار . . وأقبلت عليه الدنيا . . وأصبحت عازفة الناى الشادية حديثاً تسرى به الركبان .

وازدحمت الحانة بعشاق اللهو والطرب .

وجلس القوم ينتظرون الجارية المغنية . . بينما يصل إلى أسماعهم صوت نايها المحزون .

أصوات : (قهقهة عاليا) .

حمزة : كأسك يا أبا حرام .

هشام : اشرب .

أبوحرام: على صحتك .

(يظهر صوت الناى من بعيد)

حمزة : (مشيراً إلى صوت الناى) أتسمع يا أبا حرام ؟ .

أبو حرام : ذلك هو الناى .

هشام : إنها هى . . هى والله ولأن ترى خير من أن تسمع .

أبوحرام : إن أنغامها تلمس قلبي.

هشام : المهم المغنى وليس الغناء . .

أبو حرام : (معترضاً) بل الغناء .

هشام : (فى إصرار) بل المغنى .

أبو حرام : بل الغناء .

هشام : بل المغنى .

أبو حرام : (يلزمه الحجة) أنت تطلب الصهباء .. أم تطلب الوعاء .

حمزة : (يضحك) .

هشام : (يستشهد به) الغناء أم المغنى يا أخا تميم ؟!

حمزة : (ولا يزال يضحك) إذا وجد الغناء وجد المغنى .

أبو حرام : (محتداً) وقد يوجد المغنى ولا يوجد الغناء .

حمزة : (يضحك) .

عمار : (مقبلا يحمل الأوانى) يا سادة .. يا سادة .

حمزة : أين أنت يا عمار ؟

أبو حرام : وأين قَيْنَتُكَ التى يتواصفها الشعراء ؟

عمار : رابعة ؟

هشام : أين رابعة ؟

عمار : آ .. صبراً يا سادة .. إنها تتهيأ لمجلسكم .

هشام : (فى غضب) ولكنها تعزف نايها يا عمار .

عمار : (مرتبكا) آ.مـ... معذرة يا سادة . . (ثم ينادى)
يا رابعة . . يا رابعة .

(يسكت الناى)

عمار : أقدمى رابعةُ فقد مَلَّ الشَّرْبُ الانتظار .

(صوت باب)

رابعة : (فى دلال وهى داخلة عليهم) ولكن الانتظار تشويق.

حمزة : (مأخوذاً بجمالها) رابعة ! !

أبو حرام : يا تبارك الرحمن .

رابعة : (وهى تتضاحك) عموا مساء يا سادة .

هشام : نعمت مساء يا رابعة .

أبو حرام : (معترضاً عليه) إنها ليست رابعة . . إنها رائعة .

رابعة : (تضحك) .

هشام : تفضلى .

ابو حرام : لا . . لا واللهِ . . إنه مكانك فى الصدر .

هشام : (يتظرف أمامها على حساب زميله) بل مكانها القلب
يا أبا حرام .

ابو حرام : (يفحمه) أردت صدر المجلس يالُكَع . ها ها .

رابعة : (تضحك معه) .

حمزة : يا عمار .

عمار (الذى كان يشاركهم فى الضحك) سيدى

أبو حرام : هات أجود أنبذة الأُبُلَّة .

حمزة : وتخيَّرْ واذبح .

هشام : وخذ جيادنا إلى علائفها فما نظن أننا مغادرو هذه الحانة .

رابعة : (تضحك) .

حمزة : (وهو يقدم لها الكأس) كأسك رابعة .

هشام : (وهو يرفع كأسه) إشربْ على وجهها .

أبو حرام : (راجعاً إلى الخلاف بينهما) بل نشربُ على صوتها.

حمزة : (متضاحكا) إشرب علىَ خدها .

عمار : (متدخلا وهو يضحك ضحكة باهتة) اشربْ على كلها ها ها ها .

هشام : (يزجره فى ترفع) اسكت أنت يا رجل .

عمار : (متراجعاً بسرعة وهو يقطع ضحكته) سكتُّ . هِهْ .

رابعة : (تضحك) .

هشام : (يقترح حلا) نسأل رابعة .

أبو حرام : (معجباً بالفكرة) جميل .. جميل (ثم ملتفتاً إلى رابعة

أىَّ نخبٍ تقترحين يا رابعة ؟

رابعة : (فى دلال) تسألوننى أنا ؟

أبو حرام : نعم .

رابعة : وتقبلون حكمى؟

هشام
وحمزة } : نعم . نعم .

رابعة : إذن فلنشرب على الناى .

أبو حرام : (ضاحكا) نشرب على الناى .

هشام : (فى طرب) أىُّ نخبٍ جميل .

حمزة : (وهو يرفع كأسه) فلنشرب على الناى (ثم مستدركا

بسرعة) ولكن أتسمعيننا يا رابعة؟ .

رابعة : (فى دلال) كلاّ .

أبو حرام : (فى دهشة) كلا ؟ !

رابعة : (فى دلال) آ .

أبو حرام : كيف يا رابعة؟

رابعة : (فى دلالها) هذا شىء . . وهذا شىء .

هشام : (يحاول إغراءها) وإذا أجزلنا لك العطاء ؟

رابعة : (فى إباء يشوبه دلال) أنا يا سيدى لا أبيع الغناء .

أبو حرام : وبالرجاء ؟

رابعة : إذا كنتم تحسنون الاستماع .

حمزة : أجل نحسن الاستماع . . سكوتاً يا قوم .

أبو حرام : إيه رابعة . إنما تسمعك القلوب والأرواح .

(الموسيقى مقدمة اللحن[1])

أبو حرام : (على الموسيقى) آه :

حمزه : صَهْ .

رابعة : يا صحبةَ الرّاحِ : أهلُ الراحِ هل حانوا؟
وهل تغنت على أيامها الحانُ ؟
صبا الندامى وما فى الحانِ ألحانُ

الجميع : آه .

أبو حرام : واطرباه .

رابعة : فى كأس عمرى بقايا مَنْ يُشاربنى
ومن يطارحنى والعيش ريحانُ ؟

(١) الموسيقى واللحن لرياض السنباطى .

الجميع : آه .

هشام : ما سمعتُ كاليوم لحناً أشجى .

أبو حِرام: ولا نغماً أطرب ... هيه رابعة .

رابعة : ثمـالةٌ من ـ دموع الشجو ألوانِ
إبريقها راح يبكى وهو فرحانُ
ثمـالةٌ آهِ لو فاضَتْ .. وآهِ إذا
غاضَتْ .. وَوَاهاً لها والقلبُ لَهْفَانُ
عهدى بها وكُئوسُ الصَّفْوِ مُتْرَعَةٌ
بهنَّ طاف على السَّكْرَى سُكَيْرَانُ

هشام : (صائحاً) آىْ ... بالله يا سيدتى .

أبو حرام: ماذا قلت يا روحى أنا .

رابعة : عهدى بها وكئوسُ الصَّـفوِ مُتْرَعَةٌ
بهنَّ طافَ على السَّكرى سُكَيْرَانُ
لا يشربُ الرَّاحَ إلاَّ أنه ثمِـلٌ
نشْوانُ والكأسُ فى كفيهِ نشوانُ

تُرَى تعودُ الليالى . والهوى معنا
يا غربة الكاسِ ما للكاسِ ندمان

هشام : (صارخاً) آه .

أبو حرام : (يقبل عليه مستنكراً) ما هذا ؟ يا هذا !!

هشام : (فى غاية الطرب) ألست تسمع يا أبا حرام ؟

أبو حرام : أسمع ماذا يا منكر الصوت .

هشام : أنا منكر الصوت .. يا .. يا .. يا ..

حمزة : (يكلمه) يا أخى أسكت ها ها .

رابعة : (والجميع يضحكون) .

أبو حرام : والله . والله .

حمزة : كفى يا أبا حرام .. عودٌ إلى الغناء (ثم لرابعة) نعم .. نعم يا روح روحى .

أبو حرام : من الأول .

هشام : ثمالةٌ .

رابعة : (تغنى) ثمالةٌ من دموع الشجو ألوان .

هشام : (فى أثناء غنائها) آه .

أبو حرام : اسكت .

هشام : أسكت أنت .

حمزة : أسكت أنت وهو .

هشام : (صائحاً) وأنت أيضاً .

حمزة : وأنا .

الجميع : (يضحكون) .

رابعة : (التي كانت تغني .. تقطع غناءها وتنهض وقد ضايقتها مقاطعتهم) .

أبو حرام : الله .! رابعة .

حمزة : إلى أين يا رابعة .

رابعة : (في سخرية) يظهر أن السادة يجيدون الاستماع أكثر من اللازم ... عموا مساء يا سادة .

هشام : (وهو يمسك يدها في عنف) بل انتظري رابعة .

رابعة : (متألمة) أي . يدي . . .

أبو حرام : دعها يا هشام .

هشام : وفيم ضربنا أكباد الإبل . ؟! إجلسي .

رابعة : (في غاية الألم) يدي . . أي يا غليظ الكبد .

هشام : (في سورة الخمر) أحب الشارد من الغزلان ها ها .



مكانك أيها المخمور . .

رابعة : دعنى .. دعنى أيها المخمور .. كفى كفى .

أبو حرام : (وقد أخذته سورة الخمر) أقول لك : دعها ياهشام .

هشام : (يتحداه) وإذا لم أدعها ؟

أبو حرام : بل ستفعل وأنت راغم .

هشام : (غاضباً) أكذلك تكلمنى يا أبا حرام ؟ ! (ثم لرابعة) اذهبى أنتِ .

أبو حرام : يا عريض القفا .

هشام : (يتقدم منه) يا طويل الأذنين .

أبو حرام : (وهو يستل سيفه) مكانك أيها المخمور .

هشام : (صائحاً) سيوفكم يا آل هشام .

أبو حرام : (صائحاً) سيوفكم يا آل ظالم .

(ضجة وسيوف وحركة)

عمار : (مقبلا يجرى وهو يصيح فى وسط الضجة) يا سادة . . . يا سادة . . . أغمدوا سيوفكم .

حمزة : ابتعد أنت يا رجل .

عمار : بالله لا تخربوا بيتى .. أغمدوا سيوفكم .. أغمدوا سيوفكم .

(الأصوات تبتعد حتى تتلاشى تماماً)



« وانطلقت رابعـة إلى حجرتها . . .
وأسرعت إليها خادمها عبدة . وقد ملأها
الرعب مما كان . والخوف مما سيكون .

عبدة : (داخلة تلهث) ماذا فعلت يا سـيدتى . . لقد انقلبت الحانة رأساً على عقب .

رابعة : (بصوت باك) عبدة

عبدة : سوف لا يغفر لك عمار ما فعلت اليوم .

رابعة : ولن أغفر لنفسى ما أفعل . . لقد مللتُ هـــذه الحياة يا عبدة (ثم ثائرة) أولئك السـكارى . . . ورائحة الخمر التى تفوح من أفواههم . . . والفجور الذى يطلُّ من أعينهم . لا يا عبدة . . لا . . لا . . لن أكون شاة عند عمار .

عبدة : ولـكن سيدى سوف لا . .

رابعة : (تقاطعها) لقد ضاقت نفسى بهم . .

(يفتح الباب فجأة ويدخل عمار ثائراً)

رابعة : (وقد رأته داخلا تقطع جملتها) عمار .

عمار : (فى غاية الغضب) وبعد يا رابعة ؟

رابعة : ماذا تريد يا عمار ؟

عمار : أكذا علمتك منادمة القوم يا غانية .

رابعة : لا يا عمار ... إنى أختنق .. أنا لا أطيق هذه الحياة يا عمـار .

عمار : (يمن عليها ويذكرها) وتطيقين التشرد فى الصحراء ؟!

رابعة : (ثائرة) ليتك تركتنى فى الصحراء ألاقى مصـيراً غير هذا المصير .

عمار : ولا يرضيك ما صرت إليه يا رابعة ؟ !

رابعة : أف لك يا عمار . . وأف لهؤلاء السكارى . . . الخداع الذى أعيش فيه .. كلا : أنا لا أطيق أن أتوددُ إلى من لا أودّ .

عمار : (فى سخرية) كأنك تتألمين يا ابنة الليل ؟

رابعة : (تبكى) الليل . والظلام .

عمار : لا أدرى — والله — ماذا أصاب رابعة ؟!!

رابعة : أصابنى أن المخمور قد يفيق يا عمار .

عمار : (فى سخرية) وأفقتِ يا رابعة ؟

رابعة : أجل يا عمار . . وسأغنى عندما أريد . . وأمسك عن الغناء عندما أريد . . ومن الآن : إذا غنيت فلا شراب .

عمار : أهى ثورة يا رابعة ؟ !

رابعة : أجل . على نفسى . . وعليك ، وعلى ظروفى وما انتهيت إليه يا عمار .

عمار : وَهِمتِ رابعة . . أنتِ هنا ملكى ، وصنع يدى .

رابعة : بل أنا ملك نفسى . . وصنع ربى . ولن أرضى بهذا السجن أبداً .

عمار : لن تفرى من هذا القفص الذهبي

رابعة : بل سأحطمه إذا اضطررت .

عمار : بل أنا الذى سأحطمه على رأسك يا فاجرة .

رابعة : (صارخة) عمار .

عمار : (وهو يخرج غاضباً) سترين . . . سترين يا رابعة .

(صوت إغلاق الباب)


راحل

كان ابن زياد فاتكا تداريه مكانته فى قومه . . وكان
له ثلة يجمعهم اللهو والشراب . . كانوا وجوها . سمعوا
برابعة ، وما انتهت إليه حانة عمار .
لا يستطيعون — لمكانتهم — أن يذهبوا إليها .
ولا يستطيعون — لمجانتهم — أن يمتنعوا عنها :

الجميع : (يضحكون) .

ابن زياد : (وهو يضحك) أعرف هذا يا ورد . . لقد سمعت بها من أول يوم .

ورد : ولكن ليس من يرى كمن يسمع يا ابن زياد .

ابن زياد : أعرف هذا أيضاً .

علقمة : إذن فما يمنعك أن ننتقل إلى حانة عمار ؟

ابن زياد : ولماذا لا تنتقل حانة عمار إلينا ؟ .

علقمة : (ضاحكا) ماذا تقول يا ابن زياد ؟

ابن زياد : ما سمعت يا علقمة .

ورد : (ضاحكا) تنتقل حانة عمار إلينا ؟!!

ابن زياد : إذ لا يصح أن ننتقل نحن إليها .

ورد : ولكنها رابعة .

ابن زياد : وأنا ابن زياد .

علقمة : (وهو يضحك) بَرِئتُ من الذمة إن كنت قد فهمت شيئاً .

ابن زياد : ستفهمون كل شيء .

ورد : متى يا ابن زياد ؟

ابن زياد : عندما ترون كل شيء (ويضحك) .

الجميع : (يضحكون) .

علقمة : (وهو يضحك) أنت اليوم مُغترب . . . أؤمر لنا بالقِداح يا ابن زياد .

ابن زياد : أتقامروننى يا قوم ؟ !

علقمة : ألست تريد يا ابن زياد .

ابن زياد : بلى . وأنا قبيلك يا علقمة . . (ثم ينادى) يا مبروك . . يا مبروك . .

مبروك : (داخلا) مولاى .

ابن زياد : هات القداح يا مبروك . (ثم ملتفتاً إلى علقمة) دونك الحلبة يا علقمة .

علقمة : (متضاحكا) على أى شيء تقامرنى يا ابن زياد .

ابن زياد : على حانة عمار .

علقمة : على حانة عمار . ها ها .

الجميع : (يضحكون) .

على الطريق

مبروك : (مقتربا من الحانة) هذه حانة عمار يا مالك .

مالك : (وهو يهدىء من سرعة جواده) وهذه علاماتها ضجيج وصخب .

مبروك : وهذا عمار على بابها .

الخادم : (يتقدم منهما) سيدى .

مالك : خذ جيادنا يا فتى .

عمار : (مقبلا عليهما) يا مرحبا .. يا مرحبا .

مبروك : كيف حالك اليوم يا عمار ؟

عمار : حال لا تسر ولله الحمد على أى حال .

مالك : (ضاحكا) الناس يكادون يطيرون من الطرب وأنت وحدك على بابها حزين .

عمار : ذلك شأنى معها يا سيدى .

مبروك : كيف يا عمار ؟

عمار : وماذا تريد من رجل كثرت حرفاؤه .. وقلّ غَناؤه ؟

مبروك : (ضاحكا) إذا كثُر الحرفاء تَقِلُّ الأرباح !!

مالك : (وهو يضحك) منطق عمار .

عمار : هيه .. الشكوى لغير الله مذلة .. تفضلا .. تفضلا .

(ينفتح باب الحانة ويخرج أبو حرام غاضبا)

حمزة : (خارج وراءه يصيح به) انتظر أبا حرام .. أبا حرام .

عمار : ما هذا ؟

أبو حرام : لا والله لن أغشى هـذه الحانة بعد اليوم .

عمار : الله ! أبا حرام .. انتظر .. سيدى .

أبو حرام : دعنى يا عمار .

عمار : ماذا جرى ؟

أبو حرام : (فى غاية الغضب) أرسل إليها فترفض أن تنزل إلىّ

عمار : هَوّنْ عليك يا سيدى .

أبو حرام : وتأبى أن تشرب معى .. أنا .. ؟

عمار : مصيبتى فيها أنها لا تشرب ولا تغنى على الشراب .

أبو حرام : (ساخراً منه) نعم ؟ . منذ متى كان ذلك يا عمار ؟!

عمار : منذ شهور ... أتذكر يوم معركة الحانة يا سيدى ؟

أبو حرام : ولكنها كانت تفعل .

عمار : كان ذلك فى أول عهدها بهذه الحانة . أما اليوم وقد جعلت منها شيئا آخر فقد أصبحت شيئا آخر .

ابو حرام: بل أنت الذى أصبحت شيئا آخر . . (وهو يتركه وينطلق) حرامٌ علىّ حانتك بعد اليوم يا عمار .

عمار : انتظر أبا حرام . . سيدى . . سيدى . . (ثم لنفسه) تعساً لك يا رابعة .

مبروك : (ضاحكا) يظهر أن ورقاءك أصبحت صقراً يا عمار . ها ها .

عمار : (مقبلا عليه) أرأيت يا سيدى . أسمعت يا سيدى . .

مالك : (وهو يضحك ساخراً) مسكين يا عمار ها ها .

عمار : كان نحساً ذلك اليوم الذى لقيت فيه رابعة .

مبروك : (داخلا فى الموضوع) نريحك منها يا عمار .

عمار : ليتك تفعل يا سيدى . . إنى ضقت ـ والله ـ بأحوالها. هذا الحزن الذى لا أدرى له سببا ؟ ودموعها التى لا أجد لها تفسيراً ؟

واستناعها عن الشراب .

إنها تضحك وقلبها يبكي ولا أدرى لماذا كل هذ

مبروك : خلاص . نشتريها .

عمار : (يظن أنهم غير جادين) أبوسُ رِجلك .

مالك : وتبيعها ؟

عمار : بتراب الفلوس .

مبروك : كم أمّلت فيها يا رجل

عمار : (يظن أنهم غير جادين) خذوها بتراب الفلوس . . أريحونى منها . . لقد — والله — ضقت بها .

مالك : (وقد صدق لهجة عمار يهمس لزميله) يظهر أن مهمتنا أيسرُ مما كنا نتصور .

عمار : أنا فى خدمتكما . . تفضلا .

مبروك : (يخرج الصرة ويرمى بها إليه) خذ . . خذ يا عمار .

عمار : (الذى وجد أن الأمر جد) أهْ ؟ ؟

مبروك : ماذا ؟

عمار : ماذا أنت يا سيدى ؟

مالك : هذا ثمن رابعة .

عمار : رابعة !

مبروك : إنه ليس تراب الفلوس . . إنه ذهبٌ عينٌ وازنٌ يا عمار .

عمار : كأنكم تشترونها حقيقةً ؟!

مبروك : (ضاحكا) وكنت تظن أننا نشتريها مجازاً ؟

عمار : ولكنى .. أنا .. أنا لا أبيعها .

مالك : ألست تشكو منها ؟

عمار : كنتُ أهزل يا سيدى (ثم وهو يضحك ضحكة باهتة) أتصدقون عماراً . . أنا كذوب ها ها ها .

مالك : ولكنك ستبيعها .

مبروك : بل باعها بالفعل وقبض ثمنها .

عمار : لا . لا .. إننى أبيع أولادى ولا أبيعها .

مبروك : ولكنك بعتها يا عمار .

عمار : لن ترغمنى على ذلك (يحاول رد الصرة إليه) خذ صرتك هذه يا سيدى .

مالك : أنت واهم يا عمار .. إنه لا يشتريها لنفسه .

عمار : ولو .

مالك : أتعرف لمن يشتريها ؟

عمار : أيا كان . . لن أبيعها (ثم بلهجة التهويل) أبيع رابعة . !! كيف يا سيدى ؟

مالك : (متضاحكا) أنت لا تعرف شيئا يا عمار . . إنه يشتريها لمولاه .

عمار : ولو .

مالك : أتعرف من مولاه ؟

عمار : لن أبيعها . . لن أبيعها .

مبروك : أجب على سؤاله يا عمار .

عمار : (فى غير اكتراث) ومن يكون مولاه ؟

مالك : إنه ابن زياد

عمار : (منهاراً) أه .. ؟ من .. ابـ .. ابن زياد . (ثم صائحا) راحت رابعةُ .. وضعت يا عمار .

مبروك : (وهو يضحك) ومع هـذا فسيعوضك سيدى عن ورقاتك الذهبية كثيرا يا عمار .. هيا بنا يا مالك .

مالك : أمامنا يا عمار .

(أصوات الحانة تقترب وهم يتجهون إليها)

صوت : (صائحا فى وسط الضجة) أين عمار .. يا عمار .

صوت : النبيذ يا غلام .

صوت : (يعلو على الضجة) يا سادة .. يا سادة .. منْ كان أمامه كأس فَلْيَتْرُكْهَا منها .. ومن كان أمامه شراب فليرفعه .. إنها رابعة .

(تنقطع الضجة وتبدأ موسيقى اللحن)

عمار : (هامساً فى حزن) انظر يا سيدى .. هكذا أدب الغناء . صمتٌ .. ولا شراب



هكذا أدب الغناء.. صمتٌ.. ولا شراب

الكورس : حانةُ الأقدارْ :

عَرْبَدَتْ فيها * لياليها

ودارَ النـــورْ

والهوى صَـاحى

هذه الأزهارْ :

كيف تَسْقيها * وسَـــاقيها

بهـا مَخْمُور

كيفَ يا صَاح؟

* * *

رابعة : سألتُ عن الحبِّ أهلَ الهوى

سُقاةَ الدموعِ ندَامى الجوَى

فقالوا : حَنانكِ من شَجْوهِ

ومن جـــدِّهِ بكِ أو لَهْوِهِ

ومن كَدَرِ الليلِ أو صَفْوِهِ

سلى الطَّيرَ إن شئتِ عن شدوِهِ

ففى شَـــدوه لَمَسَاتُ الهوى
وَبرْحُ الحنينِ ، وشرْحُ الجوى

الكورس : أيكةُ الأطيارْ :
فى أغانيها * لشاديهـــا
عـلى الأغصانْ
سَوْرَةُ الرّاحِ
يا غريبَ الدارْ :
مل ْبنا فيها * نُنَـاجيهــا
مع النُّـدْمانْ
واتركِ اللاحى

* * *

رابعة : ورحتُ إلى الطيرِ أشكو الهوى
وأســــــألهُ سِرَّ ذاك الجوى
فقال : حَنَـانكِ من جَمْرِهِ
ومِنْ صَحْوِ ساقيهِ أو سُكْرِهِ

ومَن نَهيـهِ فيكِ أو أمرِهِ
سلى الليلَ إن شئتِ عن سِرِّهِ

فني الليــل يُبعَثُ أهلُ الهوى
وفي الليــل يكمنُ سرُّ الجوى

الكورس : دَوْحَةُ الأسرارْ :
يا لياليهــا * بواديهــا
هنــا يلقاك
صُبحُ أفراحي

دائرْ دَوَّارْ :
فى دياجيها * يساقيهــا
على ذكراكْ
بين أقــداحي

* * *

رابعة : ولمــا طواني الدُّجى والجوى
لقِيتُ الهوى . . وعَرَفْتُ الهوى

فنى حانةِ الليلِ خَمّارُهُ
وتلك النُّجَيماتُ سُمّارُهْ
وتحتَ خيامِ الدّجى نارُهُ
وَهَمْسُ النسائم أسرارُهْ
فى كلِّ شىءٍ يَلُوحُ الهوى
ولكن لمن ذاقَ طَعْمَ الهوى


أمل

وكان صباح ...
فقد أرق عمار ، ولم ينم ليلته ، وتردد فى الذهاب إلى رابعة ليفضى إليها بما كان ...

عمار : (مقبلا على الخادم وهو يتأمل الحانة) ما هذا ؟ ما هـذا أيها النادل ؟

الخادم : سـ ... سـ ... سيدى ...

عمار : هذه الأوانى .. وتلك الحواشى ، والحانة كلها كما كانت بالأمس .

الخادم : إننى أعمل يا سيدى منذ الـ ...

عمار : (يقاطعه فى حدة) أنت تعمـل ! بخ بخ .. إنك لا تحسن إلا أن تأكل يا أبجر .. ومع هذا فسوف أريك كيف تعمل ..

الخادم : فهمت يا سيدى .

عمار : إرفع هذه .

الخادم : أرفعها يا سيدى .

عمار : واضرب هذه الحواشى .

الخادم : أفعلُ يا سيدى.

عمار : (غاضباً) ما بالك جامداً لا تتحرك . . أهو الفعل كلامٌ يا بليـــد . (ثم وهو يمسكه من أذنه) الناس يقدمون علينا من أجل رابعة .. ولا أريد أن أفقدهم إذا فقدوها .. أقائم أنت ؟ !

الخادم . (متألماً) آه . أذنى .. أذنى .

عمار : (يدفعه) إنطلق إلى عملك أيها الغبي .. إنطلق . . (ثم يمشى وهو يغمغم) حسبى الله ونعم الوكيـل . . حسبى الله ونعم الوكيل .. هه .. هه .

(وتقع عينه على عبدة وهى مقبلة من ناحية غرفة رابعة)

عمار : (يستوقفها) عبدة .

عبدة : سيدى ! . عم صباحاً يا سيدى .

عمار : أين مولاتك يا عبدة؟

عبدة : إنها فى حجرتها .

عمار : ألم تصحُ من نومها بعد ؟ لقد انتصف النهار أو يكاد.

عبدة : بل قامت منذ ساعة . وخلت إلى أحزانها . . وذلك شأنها فى هذه الأيام .

عمار : خلاص .. انتهت .. ستريح وتستريح .

عبدة : (تحاول الرجوع) هل تريد شيئاً يا سيدى .

عمار : (يمنعها) بل انتظرى أنت .. أنا ذاهب إليها بنفسى

(صوت أقدام . ثم طرق خفيف على الباب . والباب يفتح)

(ويدخل عمار)

عمار : (حزينا) رابعة .. رابعة .

رابعة : ... ...

عمار : (فى ألم) ألا تردين علىّ يا رابعة ؟

رابعة : (فى غضب) م . ماذا تريد يا عمار ؟

عمار : (فى ألم) أريد أن أقول : إننى مضطر إلى بيعك يا رابعة .

رابعة : وأىّ جديد فى هذا ؟ . إنك تبيعنى كل ليلة يا عمار .

عمار : (منهاراً) ولكنها النهاية يا رابعة .

رابعة : (بصوت مختنق) حقاً ؟ ! متى يا عمار ؟ متى أخرج من هذا السجن البغيض ؟ .

عمار : (منهاراً) وتسمينه سجناً ؟

رابعه : وأىُّ سجنٍ يا عمار .

عمار : (فى أسف) إننى أبيعك مكرهاً يا رابعة .

رابعة : ومتى ملكتنى حتى تبيعنى يا عمار ؟

عمار : (بصوت مختنق) إننى لا أملك نفسى يا ابنتى .

رابعة : (غاضبة) الآن صرتُ ابنتك ؟!

عمار : ألم أنتشلكِ من الفقر والجوع ؟

رابعة : (فى ألم وسخرية) لتقدمنى طعاماً لِكلّ نهِم أكول .

عمار : بل جعلتُ منك وردة تتعطر بأريجها نسماتُ الأبلة .

رابعة : (ثائرة) ألا فاعلم يا عمار أن الوردة لها مكان آخر غير هذا التراب الذى مرّغتنى فيه .

عمار : على أى حال . لقد خرج الأمر من يدى . . أنا مغلوبٌ على أمرى يا رابعة .

إنه مولى من آل زياد سمع بك فأرسل فى شرائك ولا قِبلَ لى بِرَدّهِ ولست أدرى ما..

رابعة : (تقاطعه) لأن يكون لى مولىً واحد خيرٌ من أن أكون مولاةَ كلّ عربيدٍ مخمور .

عمار : أنت قاسية فى حكمك علىّ .

رابعة : أكنت تحسب أنى راضية بما أنا فيه يا عمار ؟

عمار : ولكنى كنت أكرمك .

رابعة : كما يكرم الجزار الشاة.

عمار : إنك لا تفهمين شيئاً يا رابعة .

رابعة : ليتنى كنت كما تقول .. ليتنى كنت لا أفهم يا عمار .. إنه قَضَاءٌ جَرَى،وأيامٌ أرجو ألا تعود .

عمار : ولكنك ستذكرين هذه الأيام .

رابعة : (فى ألم ومرارة) نعم . سأذكرها كثيراً .

عمار : وتندمين عليها .

رابعة : (من قلبها) كلَّ النَّدم .

عمار : إنك تحوّرين الكلام فما لهذا أردت .

رابعة : ولكنى أريد.

عمار : لك ما تريدين . . ولكن اذكرى وأنت فى بيت ابن زياد . أننى أنا الذى رفعتك إليه . . . لولاى ما غنيتِ ، ولولا غناؤك ما اشتهرت . . ولولا شهرتك (ثم يقطع جملته وقد رآها تقوم وتتركه) رابعة .، رابعة رابعة . .

(رابعة تغلق الباب وراءها بعنف)


وهجاء

مبروك : (وهو يقودها إلى بيت سيدها الجديد) من هنا .

(يفتح الباب)

هذه هى حجرتك يا رابعة .. ألست ترينها جميلة ؟

رابعة : (فى غاية الفرح) أجمل منها يا مبروك أننى تركت حانة عمار .. وتركتُ الليل والهوى .

مبروك : (ضاحكا) وستكونين سـعيدة فى بيت مولاك الجديد .

رابعة : كل السعادة .. (ثم وقد رأته ينصرف) إلى أين يا مبروك .

مبروك : انتظرى رابعة .. لن أغيب كثيرا . سأحضر ما أعده لك مولاى وهو شىء كثير .

(ويغلق الباب وراءه)

رابعة : (وقد خلت بنفسها) بُعْداً لكِ يا حانة عمار .

مرحبا بالحياة النظيفة فى بيت سيدى .

اليوم لا خمر ولا سكارى . . لا خمر ولا سكارى .

(ثم بصوت يرتعش) إلهى . . كما قدّرْتَ لى أن أخرج

من ذل المعصية ... فيَسِّرْ لى أن أدخل فى عِزّ

الطاعة . . يا تواب . .

يا تواب . .

يا تواب . .

فجيعة

ابن زياد : (صائحا) يا غلام .. الكاسَ والطاس .

همام : (متضاحكا) والله لو أنك جئتنا برابعةَ التي هي رابعة ما تطاولتَ هكذا يا ابن زياد .

ابن زياد : (يفاجئهم) وإذا كانت ؟

علقمة : (في دهشة) رابعة ! !

ابن زياد : (يضحك ضحكة فيها معنى الانتصار) .

ورد : (في إعجاب) واشتريتها يا ابن زياد ؟

ابن زياد : كان لابد من ذلك يا ورد .. لا يجمل بالمشيخة من آل زيادٍ أن يذهبوا إلى حانة عمار .

علقمة : إذن سنسمع يا ابن زياد .

ابن زياد : ونشرب يا علقمة .

همام : يا لك يا ابن زياد .

ورد : أجل ما كان لنا أن ننتقل إلى حانة عمار .

ابن زياد : بل تنتقل حانة عمار إلينا.

علقمة : (ضاحكا) ومثلك من يفعلها يا ابن زياد .

ابن زياد : (فى غاية النشوة) إنها اليوم هنا .. كأسك ياعلقمة .

علقمة : كأسك يا ابن زياد .

(يفتح الباب)

مبروك : (معلناً) رابعة .

ابن زياد : تعالى رابعة .. أقدمى .

رابعة : (داخلة) سيدى .. (ثم تقطع جملتها وتشهق فى فزع وقد فوجئت بمجلس الشراب) هيه .. وىْ .

ابن زياد : (وأصحابه يشاركونه فى الضحك من حركة خوفها) إجلسى .. إجلسى رابعة .

رابعة : (خائفة) ولكنى ... لا أجد مكانى يا سيدى .

الجميع : (يضحكون فى طرب وسرور) .

ابن زياد : أتسمع يا ورد .

ورد : إجلسى رابعة .

رابعة : (بلهجة من فجع فى جميع آماله) سيدى .

ابن زياد : (الذى فهم أنها تتحرج من منادمتهم أمامه) لا . لا عليك

رابعة .. (ثم وهو يقدمهم لها) أولئك صحبي، وللكأس بيننا حرمة، وذمام .

ورد : (وهو يقدم لها الكأس) كأسك يا رابعة .

رابعة : (حزينة) وهل بقي في الكأس شراب ؟

ابن زياد : (متضاحكا) خذيها يا رابعة .

رابعة : (متمنعة) سيدي .

ابن زياد : (آمراً) خذيها من يده .

رابعة : وخمرٌ يا سيدى ؟! لقد كنتُ في حانة عمار أغنى ولا شراب .

همام : (في سخرية) ما هذا يا ابن زياد .

ورد : دعوها يا قوم . . بالله لا تُكرِهوها على ما لا تريد .

علقمة : إذن . فهو الغناء .

ابن زياد : (غاضباً) بل الغناء والشراب ... رابعةُ كما نريد، ولسنا كما تريد رابعة .

رابعة : (في حزن) ليتني كنت أستطيع يا سيدى .

ابن زياد : (فى غضب) ومن يستطيع غيرك ياابنة الليل والهوى ؟

رابعة : (فى أسف وحزن) كنتُ يا مولاى .

همام : (مقهقهاً) كانت - هاها .

ابن زياد : وماذا جرى ؟

رابعة : جرى أننى تلمستُ فى بيتك أمناً لروحى .

علقمة : وهل أنتِ خائفة ؟

رابعة : كل الخوف .

ابن زياد : مِمَّ يا رابعة ؟

رابعة : من نفسى يا مولاى .

همام : (فى ضيق) حديثٌ سوف لا ينتهى .

ابن زياد : أى رابعة . لقد أطلتِ .. وما أظن أنك مفسدةٌ علينا ليلتنا (ثم بلهجة الآمر) الكأسَ أولا .

رابعة : هيهات يا سيدى هيهات .

ابن زياد : (فى دهشة) ماذا ؟

علقمة : (ضاحكا) امتناعٌ هذا أم تمنع ؟

ابن زياد : (فى غلظة) رابعة . أقولُ لكِ اشربى . . أقولُ لك غنى . . هل سمعتِ ؟

رابعة : (بصوت يتهدج) كان ذلك ونحن على ضفاف الأبلة .

ابن زياد : (فى غيظ مكتوم) واليوم ؟

رابعة : اليوم نحن على ضفافِ الأبد .

همام : (يغمزها) كذا أيتها الناسكةُ الحصان .

رابعة : (فى ألم وهم يضحكون) سيدى .

ابن زياد : (ثائراً) هلوكٌ تتنزَّهُ عن الشربِ والغناء !!

رابعة : (متألمة) وَى .

ورد : (متدخلا) يا قوم .. يا قوم .

ابن زياد : (مواصلا كلامه) ألهذا دفعتُ خمسمائةِ دينار .

رابعة : (بصوت يرتعش) اغفر لى يا سيدى أنت لا تعرْف قلوبَ الغوانى . . نحنُ نحِنُّ إلى الحياةِ الشريفة حتى ونحن نتمرغ فى الأوحال . . . لقد حسبت أنى صالحت ربى حين طوانى بيتكَ وتركتُ حانةَ عمار .



نحن نَحِنُّ إلى الحياة الشريفة .. حتى ونحن نتمرَّغ فى الأوحال

ابن زياد : بل تريدين أن ترجعى إلى السكارى هناك .

رابعة : (فى مرارة) وهل بعدت عن السكارى فى بيد ..

ابن زياد : (يقاطعها غاضباً وهو يصفعها) صه .

رابعة : (بصوت مختنق) و ..وتصفعنى ياسيدى !!

ورد : (متألماً لها) ما ضرَّ لو شاركتِنا يارابعة .

رابعة : (وهى تبكى) ياأسفاً على ما فات .

همام : ألهذه المناحةِ دعوتنا يا ابن زياد ؟

ابن زياد : أيتها الدمية اللعوب .

رابعة : إن شرابى اليوم دموع ، وغنائى نحيب .

ابن زياد : أهكذا تحكمين على نفسك .

رابعة : بل حكمت علىَّ نفسى .

ابن زياد : إذن فقد اخترتِ جزاءكِ . . (ثم صائحا)
يا مبروك .. يا مبروك .

ورد : أتاك يا ابن زياد .

مبروك : (داخلا) مولاى .

ابن زياد : أين سوطك يا مبروك .

مبروك : فى خدمة مولاى .

ابن زياد : أريدك أن تروّض هذه القطة .

ورد : رفقاً بالقوارير يا ابن زياد .

ابن زياد : (مواصلا) عليك بها يا مبروك .

مبروك : أمرك يا سيدى . . تعالى . .

رابعة : (تبكى وهى خارجة مع مبروك) .

ابن زياد : (يشيعها) سأعلمك طاعة السادة يا هلوك .


في بحار الندم

رابعة : (تبكى فى محبسها) إلهى .. سيدى ..

أنا فى طريقى إليك .. أخوض بحار الندم .

فهل أصلُ إليك يا سيدى ؟

وإذا وصلت .. فهل تقبلنى ؟

(ثم بصوت يتهدج) واغوثاه .. كم من شهوةٍ

ذهبتْ لذتها ، وبقيت تبْعَتُها (وتبكى) :

(الباب يفتح ومبروك يدخل عليها وبيده السوط

مبروك : (فى غلظة) هيه .

رابعة : مبروك .

مبروك : (فى غلظة) ألا تزالين تبكين يا رابعة ؟

رابعة : وهل أملك غيرَ الدموعِ يا مبروك ؟

مبروك : ألا تطيعين سيدك يا رابعة ؟

رابعة : (فى مرارة) ظننتُ أننى انتهيتُ من حانةِ عمار فإذا بيت سيدى حانةٌ أخرى .

مبروك : (فى غضب) أقول : هل تطيعين سيدك يا رابعة ؟

رابعة : (بصوت مختنق) أشرب .. و .. أغنى ؟ !



إن لى سيداً واحداً . . ولن أغنى لسواه

مبروك : وما يمنعك أن تفعلى ؟

رابعة : (فى إصرار) أما الشراب فقد علمتَ ألا سبيل إليه . . وأما الغناء فلن أغنى لمخلوق بعد اليوم .

مبروك : وسيدك ؟

رابعة : إن لى سيداً واحداً ولن أغنى لسواه . .

مبروك : (فى ثورة) أنتِ عنيدة ، وأنا أشد منك عناداً . وسيدى أشدُّ منى ومنك . . وسوف أنصب عليك بالسوط هكذا (وهو يعشقها بسوطه).

رابعة : (فى ألم مكتوم) أىْ .

مبروك : (وهو يضربها) كل يوم . . هِهْ .

رابعة : (تكتم آلامها) أىْ .

مبروك : (وهو يضربها) هكذا .

رابعة : آه . .

مبروك : (فى عنف وقسوة) هكذا . . هكذا . . هكذا .

رابعة : (فى صراخ مكتوم) آه . . أى . . آ .

(وصوتها يبتعد حتى يتلاشى)


وحدث ذات ليلة

رابعة : (على الناى منفردة فى مناجاتها)

يا حبيبى :

سجا الليل . . ونامت العيون .

وسكنتْ الوحوشُ فى الفلاة . . وهجعت الطيور فى الأشجار ، وهدأت الأسماك فى البحار . . وأنت وحدك لا تنام . . فكيف أنام يا حبيبى .

حبيبى :

يقولون لى غنى . . . لن أغنى لسواك .

يعذبوننى . . . لا أحس غيرَ هواك .

(ثم تغنى)

غريبٌ عـلى بابِ الرَّجاءِ طريحُ
يناديكَ موصُـولَ الجوى وينوحُ
يهونُ عذابُ الجسم ، والرُّوحُ سالمٌ
فكيف وروحُ المستهامِ جرُوحُ

وأهواكَ لكنى أخاف . . وأستحِى
إذا قلت : قلبي فى هواكَ جريحُ
طريقى إليك الوجد ، والسهدُ ، والضنا
ودمعٌ أدارِى فى الهوى ويبوح
وليس الذى يشكو الصبابة عاشقاً
وما كلُّ باكٍ فى الغرامِ قريح

* * *

يقولون لى : غنى . . وبالقلب لوْعَةٌ
أغنى بها فى خلوتى وأنوحُ
ولى فى طريق الشوقِ والليل هائمٌ
معالمُ تخفى تارةً وتلوح
ولى فى مقامِ الوَجدِ حالٌ ونشوةٌ
دموعى غبوقٌ عندها وَصَبوحُ

بكيت من الهجرانِ لا من عذابهِ
وداعي الهـــوى بالواهين يصيح
بسرِ الهوى يغدو وفيــه يروح
غريب عــلى بابِ الرجاء طريح

(وفجأة يفتح الباب ويدخل مبروك وهو يبكى)

مبروك : (وهو داخل بصوت متهدج) رابعة .

رابعة : (وقد فوجئت به داخلا فى هذه الساعة من الليل) هيه .

مبروك : (بصوت مختنق) رابعة .

رابعة : مبروك .

مبروك : لا . لا تخافي رابعة . . لن أعذبك بعد اليوم . . ماذا كنت تقولين يرحمك الله .

رابعة : (بصوت متهدج) أسمعت حديثى إلى سيدى ؟

مبروك : سمعت يا رابعة . . ورأيت أيضا .

رابعة : واحزنَ قلباه .

مبروك : قومى رابعــة . قومى أساعدك على الفرار من عذاب مولاك .

رابعه : (وهى تبكى) وكيف أفرُ من عذاب نفسى يا مبروك ؟

مبروك : لا . . لا تبكى رابعه (وهو يرى بالسوط) هذا هو السوط . . لن أمسك بسوء بعـد اليوم وليذهب سيدى إلى الجحيم .

ابن زياد : (داخلا) ولـكنه ذهب إلى الجنة .

مبروك : (الذى فوجئ بسيده) سيـ . . سـ . . سيدى .

ابن زياد : لا بأس عليك يا مبروك . لقد سمعتُ كما سمعت .

مبروك : و . . ورأيت يا سيدى . . . القنديل .

ابن زياد : انهض مبروك إنى أعفو عنك . (ثم ملتفتاً إلى رابعه) أما أنتِ يا رابعه فلست أدرى كيف أكفر عن إساءتى إليك .

تعالىْ يا ابنتى . . . خذ بيدها يا مبروك .

طريق السالكين

أصدقاء : (يضحكون) .

ابن زياد : (يراجعهم وهم يقاطعونه) لا لا . أقسم لكم .

همام : (وفى صوته لون الضحك) اسمع يا ابن زياد . . إنك هنا فى خمارة الهوى لا تدرى بما يقال .

ابن زياد : أريد أن

ورد : (يقاطعه ضاحكا) ومتى كان للمحبين إرادة .

ابن زياد : صدقونى أنى لم . .

علقمه : (يقاطعه) ومايمنعك أن ترى ؟

ابن زياد : (ينزل على إرادتهم) وهو كذلك . . سترون بأعينكم (ثم يصفق وهو ينادى) يا مبروك . . مبروك .

مبروك : سيدى .

ابن زياد : رابعه يا مبروك .

مبروك : سيدتى رابعه .

همام : (وينفجر ضاحكا) سيدته هاها .

علقمه : لعلك قد جعلتَ منها سيدة بيتك يا ابن زياد .



ونظرت من خصاص الباب فما راعني إلا قنديل يتحرك . . .

الجميع : (يضحكون).

ابن زياد : يا قوم . . يا قوم . . أشهد اللهَ أنى ما تأدّبتُ كما أدبتنى هذه السيدة .
(ثم يتدفق فى حديثه) قمتُ ليـلةً أتحسّسُ أمرها فسمعتها فى جوف الليل تدعو دعاء انفطر له قلبى .
ثم سمعتها تغنى غناءً كأنه يتنزلُ من السماء .
ونظرت من خَصاصِ الباب فما راعنى إلا قنديلٌ يتحركُ فوق رأسها وهو غير معلقٍ بشىء .

ورد : سبحان الله ! !

علقمه : (فى شك من ذلك) أو كذا خُيلَ إليك يا ابن زياد .

ابن زياد : بلى كذا سمعت ، وكذا رأيت . وإذا كذبتنى أذنى فلن تكذبنى عينى أبداً .

(الباب يفتح ورابعه داخلة)

ورد : رابعه .

رابعه : (متجهة إلى ابن زياد) لبيك يا مولاه .

ابن زياد : تعالىْ يا ابنتى .

علقمة : وتذهب فى تدليلها إلى هذا الحد ؟

همام : فكيف شربك معها ؟

رابعه : ومن لى بأدب الشراب . وشهوده غياب .
وحلاوته عذاب . وبساط الندامى تراب .

ورد : ترتيل هذا أم غناء ؟

رابعة : (مستمرة) وقد شرب الشاربون فغابوا عن الوجود ،
وفنوا فى حقيقة الموجود .

ابن زياد : أى رابعه . . أيتها الأخت الطيبة .
لقد ندمت على سوء معاملتى لك طوال هذه الشهور .

رابعه : ذلك بلاء شغلنا عنه الصبر عليه

ابن زياد : سؤالا واحداً يا رابعه .

رابعه : سل ما شئت يا سيدى .

ابن زياد : ماذا كنتِ تقولين يا رابعه ؟

رابعه : يا إلهى .



أنت حرة لوجه الله . .

ابن زياد : غناء سمعته تخيل إلىّ أنى أرتفع إلى السماء .

رابعه : ذلك حديث بينى وبين سيدى . وليس للعبد أن يتحدث بحديث سادته . . . فكيف بالسيد الأكبر .

ابن زياد : (يتمثل بشعرها) غريب على باب الرجاء طريح .

رابعه : (تصرخ باكية) واغوثاه .

ابن زياد : انهضى رابعه . . انهضى يا ابنتى . . إنى أهبك نفسك . . أنت حرّة لوجه الله . . فإن شئت بقيت فى بيتى لا لتخدمينا نحن ، ولكن لنخدمك أنت — وإن شئت رحلت .

رابعه : (من خلال دموعها) بل أفضل الثانية :

ابن زياد : ترحلين عنا ؟ !

رابعه : نعم .

ابن زياد : ولكن إلى أين يا ابنتى ؟

رابعه : إليه . . إليه هو . وليس إلى سواه .

(ثم فى ضراعة وصوتها يبتعد) سيدى . . سيدى خذ بيدى . . أنا فى طريق إليك .

أنا فى طريق إليك .


دروس

عمار : وللهِ منى جانبٌ لا أضيعُهُ
وللهو منى والخــــلاعة جانبُ
تلك هى البصرة منذ أنشأها عتبة بن غزوان .. لهوٌ بجانبه جد .. وعبثٌ إلى جواره زهد .

حسان : (ضاحكا) وأنت تشرب من الوردين يا عمار .

عمار : وأنا فى هذه السنّ يا ابن أخى ؟!

حسان . (غير مقتنع) إم .

عمار : كان ذلك قبل أن أصل إلى رابعه .

خالد : ووصلت يا عمار .

عمار : إنها صلة قديمة .. ترجع إلى أول عهدها بالطريق. منذ خرجتْ من حانتى .. ثم منذ خرجتْ من بيت ابن زياد . وقطعت آخر صلاتها بدنيا الناس .

خالد : ولكنها تقابلهم .

عمار : قلت إنها قطعت صلاتها بدنيا الناس . ولم أقل إنها قطعت صلاتها بالناس .

حسان : فلماذا ترفض هداياهم ؟

عمار : بل رفضت ما هو أكثر . إنها رفضت محمد بن سليمان الهاشمى !!

خالد : هذا عجيب !

عمار : وأى عجب يا ابن أخى ؟

حسان : (فى دهشة) ترفض الزواج من محمد بن سليمان الهاشمى !!

عمار : (يزيده دهشة) وأنت تعرف غلة ملكه ؟

حسان : يقال إنها ثمانية آلاف درهم .

عمار : فى كل طلعة صباح .

خالد : ومع هذا ترفض الزواج منه ؟!

عمار : إنك تنظر إليها بعينك التى تنظر بها إلى الناس .. إنها طراز آخر يا بنى .

خالد : وحاجتها من الدنيا !

عمار : قليلة .. إنها لا تتزود إلا إلى الله .

خالد : ولكن . ألا تأكل ؟ ألا تشرب ؟ كيف تعيش يا سيدى ؟ ومن أين ؟

عمار : إنها تأكل السهد وتشرب الدموع .

خالد : تأكل السهد وتشرب الدموع ؟!

عمار : هذا مقام لاتفهمه أنت يابنى : . إنى — والله — أشعر فى حضرتها بريح الجنة .

خالد : (فى إعجاب) وغشيت مجلسها يا سيدى .

عمار : (ضاحكا) مجلسها . . وتسميه مجلسا يا بنى : صومعة ليس بها غير إبريق ، ومنامة هى محرابها ، ومشجب قصب علقت عليه أكفانها ، وعليه ثابها القديم .

ذلك هو مجلسها . ومع ذلك فهو قبلة القلوب ، وندوة أهل الله .

خالد : يا إلهى . وددت لو أخذتنى معك إليها ذات يوم .

عمار : أسألُ فى ذلك .

خالد : ويحتاج الأمر إلى سؤال ؟

عمار : (غاضباً) مَهْ يا ابن أخى . . تريد أن تسلك الطريق من نهايته . . الطريق مراتب يا بنى .

صالح : (مقبلا عليهم) السلام عليكم .

حسان : (هامساً) هذا صالح بن عبد الجليل . (ثم يرد السلام)
وهما يردان معه) وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

صالح : (وقد لاحظ غضب عمار) ماذا بكم؟

عمار : لا شيء . كنا نتذاكر أخبار رابعه .

صالح : حديث رابعه - يملأ البصرة ويملأ كل مكان . ولكن:
إذا أردتم أخبارها ثقة فعليكم بابن دينار

عمار : ابن دينار ؟

صالح : إنه يدوّن أخبار رابعه . يمليها على تلميذه أبى الحسن
فى جامع البصرة . .

خالد : (ينهض) السلام عليكم.

حسان : إلى أين يا خالد ؟

خالد : إلى جامع البصرة .

(جو المسجد . وأصوات تختتم الصلاة . وهمهمة بتسابيح خفيفة)

ابن دينار : (فى المسجد يملى على تلميذه أبى الحسن) وتعاقبت الأيام .

أبو الحسن : (وهو يكتب وراءه) تعاقبتِ ال ... اي ... ام .

ابن دينار : (مستمراً بلهجة الإملاء) ومرت السنون والأعوام .

أبو الحسن . (وهو يكتب) ال . . أعوام .

ابن دينار : (مستمراً بلهجة الإملاء) وخلعَت ثوبَ الشباب .
وخاضت بحارِ الندم . . وسلكت طريق الواصلين . .
حتى صارت ما هى عليه الآن يا فتى .

أبو الحسن : (وهو يكتب وراءه) ماهى . . عليه . . الآن .

ابن دينار : اكتب يا فتى (ثم بلهجة الإملاء) ودخل عليها لصٌ
ذات ليلةٍ وهى ساجدة .

أبو الحسن : وهى . . ساجدة .

ابن دينار : (مستمراً) فلم يتبينها اللصُّ فى الظلام . ولم تحسَّ هى
به ولما لم يجد اللصُّ شيئاً يسرقه همَّ بالخروج .
وفى هــــذه اللحظة انتهت رابعه من صلاتها . .
ورفعت بالسلام صوتها .

* * *



ودخل عليها لص ذات ليلة ..

رابعه : (تختم صلاتها) السلامُ عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله .

اللص : (فى غاية الرعب وقد فوجئ بها) إه . . . . يبسم بسم الله الرحمن الرحيم .

رابعه : (فى لطف وسماحة) لا . لا تخف يا أخى .

اللص : م . . . من أنت ؟

رابعه : السلامُ عليكَ أولا .

اللص : أين كنتِ بحق الله ؟

رابعه : (فى عتاب رقيق) ألا تردُّ السلام يا اخى .

اللص : (فى ذهول) تناديننى بأخيكِ . . وتلقين إلىّ بالسلام وقد دخلتُ بيتك سارقاً !!

رابعه : ولكنك لم تسرق شيئا .

اللص : لأننى لم أجد ما يُسرق.

رابعه : يخجلنى أن تقصدنى فلا تجد فى بيتى شيئا

اللص : (مأخوذاً) أنتِ . . أنتِ .

رابعه : أختك يا أخى .

اللص : (وهو يلهث) أنت .

رابعه : (تقاطعة فى لطف) قل لى أولاً : لماذا تمدُّ يدك إلى عبدٍ مثلك ؟

اللص : إنها الحاجة .

رابعة : ولماذا لم تقصد بها مولاك ؟

اللص : (فى سخرية وألم) مولاى .

رابعة : هل وقفتَ على بابه ؟

اللص : بل هربت منه .

رابعة : وكيف تهرب منه وهو معك يا مسكين ؟

اللص : (وقد أدرك ما تعنيه) أنتِ . . . عمَّنْ تتكلمين يا سيدتى ؟

رابعة : أتكلم عنه . . هو . . السيد الأكبر الذى لا يُغلق بابه . . ولا يضيق رحابه .

اللص : (يبكى) .

رابعة : قم يا مسكين وتوضأ من هذا الإبريق واتجه إلى الغنى الذى لا غنىً سواه .

اللص : أفعل إن شاء الله . . ولكن : ألا سراجَ نستضئُ به ؟

رابعة : وهل نحن فى ظلام ؟

اللص : إنى لا أراك يا سيدتى .

رابعة : لأنك تراه . . (ثم بصوت يتهدج) وحتى لا تشغل العين بشىء سواه .

اللص : لا إله إلا الله .

رابعة : إلهى . . وسيدى . . وحبيبى :

هذا عبد قد أتى بابى ولم يجد شيئاً . . وقد دللته على بابك . ووقفته برحابك . . وجعلته يلوذ بجنابك . . فلا تحرمه من فضلك وثوابك .

يا غنىُّ . . يا غنىُّ . . يا غنى . .

* * *

ابن دينار : (بلهجة الإملاء يملى بقية القصة على تلميذه أبى الحسن)
واستغرقتْ رابعة فى صلاتها .

أبو الحسن: (وهو يكتب) فى . . صلا . . تها .

ابن دينار : واستغرق اللص فى صلاته . . وانشطر الليل وهما
غارقان فى صلاتهما ودعائهما .

أبو الحسن: (يكتب) و . . دعائهما .

ابن دينار : فلما كان الفجر أفاقت رابعة من استغراقها فوجدت
اللصَّ ساجداً يبكى وهو يقول :

اللص : (وهو يبكى) :

إذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى ؟
فما قولى له لمـــا يُعــــاتبنى ويُقصينى

رابعة : هوّن عليك ياأخى .

اللص : (فى رعب وقد فوجئْ بصوتها فى استغراقه) إه . .
من ؟ من ؟



.. لقد تحرَّرَتْ روحي .. لقد وجدتُ نفسي أخيراً ..

رابعة : (فى عتاب لطيف) أهكذا تنسى أختك سريعاً !!

اللص : أين .. أين أنا ؟

رابعة : أنت حيث أراك الله أن تكون ..

اللص : (وقد تذكر كل شىء) آه . لا تؤاخذينى .. أنت صاحبة الدار .. ولكن هل قضينا الليلة معاً ؟!

رابعة : بل قضيناها معه .

اللص : واحرّ قلباه .

رابعة : كيف كانت ليلتك يا أخى ؟

اللص : وقفت على بابه بذلى وفقرى . فقبل عذرى وجبر كسرى .. (ويبكى) .

رابعة : ولهذا تبكى ؟

اللص : (منفعلا) إننى أصلى بدموعى .. لقد تحررت روحى لقد وجدت نفسى أخيراً .

(ثم ينهض صائحاً) كلا .. أنا لست عبداً .. أنا حرٌّ طليق .. لقد عرفت طريقى .

(ثم يخرج صائحاً) أنا فى طريقى إليه .. أنا فى طريقى إليه .

رابعة : (تتجه إلى السماء) إلهى : هذا عبد وقف ببابك ساعة فقبلته ، وأنا مذ عرفتك بين يديك . . أتراك قبلتنى . . (وتبكى) .

* * *

ابن دينار : (بلهجة الإملاء يملى نهاية القصة) وخرج اللص هائماً على وجهه .

أبو الحسن : (يضع القلم ويقبل على شيخه) يا عجباً يا سيدى .

ابن دينار : إنها رابعة يا بنى : إنك لم تدركها فى صدر شبابها لقد كانت شيئاً يدير الرءوس .

أبو الحسن : يا عجبا للخطيئة تورث الـ . . (ثم يقطع جملته متحرزاً) أستغفر الله على أى حال .

سفيان : (مقبلا) السلام عليكم .

أبو الحسن : (يهمس لابن دينار) هـذا شيخنا سفيان (ثم يرفع صوته بالسلام) وعليكم السلام ورحمة الله .

ابن دينار : وعليكم السلام ورحمة الله . . من أين يا سفيان ؟

سفيان : (فى ألم) من عندها يا ابن دينار .

ابن دينار : وكيف حالها اليوم ؟

سفيان : كما كانت بالأمس : شيخوخة تعانيها ، وساعات تقضيها .

ابن دينار : لا حول ولا قوة إلا الله (ثم لتلميذه وهو يتنهد) النهاية . . أكتب يا فتى

سفيان : ماذا تكتبون ؟

ابن دينار : نكتب أخبارها .

سفيان : أخبارها ؟ وهل تحتاج أخبار رابعة إلى كتابة يا ابن دينار ؟

ابن دينار : إنما نكتبها للزمان يا أخى .

سفيان : إذا أردتم مزيداً من أخبار رابعة فعليكم بخادمها عبدة .

ابن دينار : (متذكراً) خادمها عبدة .. لقد أذكرتني ياسفيان . . أكتب . . أكتب يا أبا الحسن .

(ثم بلهجة الإملاء) حدثنى جعفر بن سليمان .. قال : حدثنى العباس بن الوليد .. قال : قالت خادمها عبدة :

* * *

عبدة : كنت أقوم على خدمة سيدتى منذ أعتِقتْ ، وما زلت فى خدمتها إلى اليوم . . فبينا أنا نائمة ذات ليلة إذ خيِّلَ إلىَّ أنى رأيت نوراً ملأ ما بين السماء والأرض .. فقمت من نومى فزعةً فسمعتها تبكى فى كبد الليل حتى خيل إلىَّ أن كل شىء يبكى معها . . ثم سمعتها تقول :

رابعة : إلهى : أنارت النجوم ...

ونامت العيون...

وغلقت الملوكُ أبوابها...

وخلا كل حبيب بحبيبه ...

وهذا مقامى بين يديك...

وعزتك يارب ما عبدتك لجنتك . بل لمحبتك ، وليس

من أجلها قطعت عمرى فى الوصول إليك
إنه الحب .
الحبُ ... والشوق
وكيف حبيك ، وشوقى إليك ؟
(ثم تبكى وهى تغنى)

تركتُ الهوى مُذ عرفتُ هواكا
وأغلقتُ قلبىَ عمَّنْ عَدَاكا
وقمت أناجيك يا من ترى
خفايا القلوب ولسنا نراكا
« أحبك حُبَّين : حب الهوى
وحباً لأنك أهل لذاكا »[1]
« فأما الذى هو حبُّ الهوى
فشُغلى بذكرك عمَّنْ سواكا »
« وأما الذى أنت أهلٌ له
فكشفُكَ لى الحُجبَ حتى أراكا »
« فلا الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى
ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا »

(١) الأبيات التى بين الأقواس للسيدة رابعة . والموسيقى واللحن : رياض السنباطى :

«أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا»
وأشتاق شوقين : شوقَ النوى
وشوقاً لقربِ الخطى من حماكا
فأما الذى هو شوقُ النوى
فَسرَى الدموع لطولِ نواكا
وأما اشتياقى لقربِ الحمى
فنار حياةٍ فنتْ فى ضياكا
ولستُ على الشجو أشكو الهوى
رضيتُ بما شئت لى فى هواكا

نهاية وبداية

وفى الكوخ الذى هو ندوة أهل الله .

وعلى المنامة التى هى محراب . رقدت رابعة — أو ما بقى منها — تودع آخر ساعاتها من الدنيا ، وتستقبل أول ساعاتها من الآخرة . .

خلق كثير من العلماء والأمراء والسابلة وقوف على بابها ينتظرون قضاء الله . .

عمار : (بصوت أرعشته الايام) لا حول ولا قوة إلا بالله .

ابن زياد : ألا نستطيع أن نلقى عليها نظرة أخيرة يا سفيان .

سفيان : أخشى ألا يكون ذلك مستطاعاً يا ابن زياد .

ابن زياد : (بصوت يتهدج) ولكنى ... كنت ... أريد أن ... تسامحنى هى على ما فرط منى يا سفيان .

سفيان : غفر الله لك يا ابن زياد ... ألا تزال تذكر هذه الأيام؟

ابن زياد : وأندم عليها يا سفيان .

عمار : (وقد رأى عبدة مقبلة) هذه عبدة .

ابن زياد : (مقبلا عليها) عبدة .

سفيان : (وهو يكتم انفعاله) تعالى عبدة ... كيف حالها الآن؟

عبدة : (تبكى) :

ابن زياد : (فى غاية الضيق والألم) ألا تجيبين سؤاله بدلا من هذا البكاء يا عبدة ؟

سفيان : (فى حزن عميــق) بل أجابت يا ابن زياد ... انطلق عبدة ... انطلق فلعلها فى حاجة إليك الآن .
لا حول ولا قوة إلا بالله .

(وتبتعد الأصوات حتى تتلاشى)

رابعة : (بصوت يرتعش من الكبر والمرض) .
عجوزٌ سُحِلت مريرتها ، وقد أوفت على الثمانين .
يا حبيبى :
لقد أنفقتها ثمانين عاماً وأنا أسعى إليك .. ومازلتُ أسعى يا حبيبى . فتى أصل إليك يا روحَ روحى ؟

(ينبعث صوت الناى فجأة)

رابعة : (فى دهشة وبصوت متقطع) يا إلهى . . هــــذا هو الناى . . الناى .

عبدة : (داخلة عليها) سيدتى . إن خلقاً كثيراً من العلماء والأمراء والسابلة وقوفٌ على بابك يكون .

رابعة : دعى الخلق للخالق (ثم فى دهشة من صوت الناى)
ولكن .. اسمعى .. عبدة .

عبدة : (التى لا تسمع النـاى) أسمع ماذا سيدتى ؟

رابعة : (فى دهشـة) ألا تسمعين يا عبدة ؟

عبدة : ماذا ؟

رابعة : هذا .

عبدة : أىّ شىء تعنين يا سيدتى ؟

رابعة : ألستِ تسمعين الناى يا عبدة ؟

عبدة . أنا لا أسمع شيئاً .. (ثم وهى تكاد تصعق من الدهش)
هيه .. يا إلهى .

رابعة . عبدة !

عبدة . (تصيح) سيدتى .. إن وجهك تعودُ إليه
نضرة الشباب !

(النـاى مستمر تسمعه رابعة وحدها)

رابعة : ذلك هو الناى .. وتلك علاماتها .. عبدة !

عبدة : سيدتى !

رابعة : أدخلى سفيان يحضر هذه الساعة .



سيدتى : إن وجهك تعود إليه نضرة الشباب

(ثم فى مناجاة عميقة وقد خرجت عبده) يا حبيبى . .
ها أنا ذى صاعدةٌ إليك...
ولكنى خائفة .
ليس من نارك ، ولكن من هجرك يا حبيبى .

(الناى مستمر)

سفيان : (داخلا) سلامٌ أهلَ الله .

رابعة : سفيان . . تعال يرحمك الله . . أخبرنى ألا تسمع صوت الناى .

سفيان : أى ناى يا أم الخير ؟

رابعة : (مشيرة إلى الصوت) هذا .. ألا تسمع ياسفيان !!

سفيان : وَيكِ رابعة .. أنا لا أسمع شيئاً .

رابعة : (فى ألم) حتى .. أنت .. يا أخى (وتبكى) .

سفيان : لا عليكِ يا أختاه .. إنك اليوم تسمعين ما لا نسمع وترين ما لا نرى .

رابعة : عبدة !

عبده : (بصوت مختنق) ما .. ماذا ؟

رابعة : هاتى نايى القديم .

عبدة : (مستنكرة) ما ... ماذا ؟

رابعة : الناى القديم .. إنه على هذا الكفن .. لقد عزفتِ عليه يوماً يا عبدة .. وأنا الآن ضعيفة لا أستطيعُ ولا أقوى .

عبدة : (وهى تبكى) لا .. لا يا سيدتى !

رابعة : بل اعزفى عليه يا أختاه .. إن أنغامه اليوم ليست من الأرض .. إنها أنغام من السماء !

(يرتفع صوت الناى فجأة)

رابعة : عند ما تغمض عيناى .

عند ما ترتمى يداى .

عند ما انطلق من سجن هذا الجسد .

عند ما أتحرَّرُ من تُرابيَّتى .

أطيرُ إليك يا حبيبى على أنغامه .

وأزفُّ إليك على ألحانه .

يا أنت ...

يا أنا ...

يا هُوَ ...

يا حبيـ...

يا حبيبي ..

عبدة : (تنفجر صارخة وهى ترتمى عليها باكية) سيدتى سيدتى .

سفيان : (على بكاء عبدة) كل نفس ذائقة الموت ..

عبدة : (تبكى)

سفيان : إنا لله وإنا إليه راجعون !

(تسمع أصوات الدفوف من بعيد)

عبدة : (تشهق من الدهش) هيه .. سفيان !!

سفيان : (فى ألم) ماذا ؟

عبدة : يا ربى .. إنها هى .. هى .. هى والله !

سفيان : هى مَنْ يا عبدة ؟

عبدة : مولاتى !

سفيان : رابعة ؟

عبدة : ألا تسمع يا سفيان ؟ ألا تراها مثلى ؟

سفيان : إنه مولاتك جثة هامدةٌ أمامك يا عبدة .

عبدة : لا .. لا .. إنى أراها الآن فى ثوب الصبا إن وجهها يضئ ... إنها تبتسم .

سفيان : (يضرب كفا بكف) لقد جُنت عبدة

عبدة : ألا تراها يا سفيان ؟

سفيان : (متألما) عبده .

عبدة : إنهم يزفونها فى السماء .

عروس فى ثوب العرس .

ووراءها حوريات من السماء . . بأيديهن المزاهر والدفوف .

(ثم تنادى صارخة) سيدتى . . سيدتى .

(ترتفع الدفوف فتطغى على صياح عبدة)

الحوريات : أوْقدوا الشموسْ انقروا الدُّفوفْ[1]

موكبُ العروس فى السما يطوف

والمنى قُطوفْ

انقروا الدفوفْ

* * *

رابعة : الرضـــا والنورْ والصـــبايا الحورْ

والهوى يَدُور

---

(١) الموسيقى واللحن : محمد الموجى

آن للغريبْ أن يرى حِماهْ
يومُهُ القريب شاطئْ الحياهْ
والمنى قُطوف
فى السما تطوفْ
انقروا الدفوفْ

* * *

الحوريات : أوقدوا الشموسْ انقروا الدفوفْ
موكب العروس فى السما يطوف
والمنى قطوف
انقروا الدفوف

* * *

رابعة : يا حبيبَ الروحْ تائهٌ مجروحْ
كلهُ جُرُوحْ
لائذ بالبابْ شوقهُ دَعاهْ
والرضا رحاب يشملُ العفاهْ
والمنى قطوفْ
فى السما تطوفْ
انقروا الدفوفْ

الحوريات : أوقدوا الشموس   انقروا الدفوف
موكب العروس   فى السما يطوف
والمنى قطوف
انقروا الدفوف

* * *

رابعة : طاف بالسلامْ   طائفُ السلامْ
يوقظ النيامْ
عهدُهُ الوثيق   واحة النجاه
أول الطريق   هو منتهاه
والمنى قطوف
فى السما قطوف
انقروا الدفوف

* * *

الحوريات : (وأصواتهن تبتعد حتى تتلاشى) .
أوقدوا الشموس   انقروا الدفوف
موكب العروس   فى السما يطوف
والمنى قطوف
انقروا الدفوف


دار
القومية العربية
للطباعة والنشر والإنتاج
١٦ شارع النزهة


Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
0250753

الثمن ١٠ ص